إحفظ عتيقك

نظر لحضرة المحرري لويس دريان المارونى

أما تقع عينك على صبي يمتي جمرًا في حوض يراتيه تنبعث عنهُ تموُّجات بشكل دوائر تتلاحق وتتسع كلما ابتعدت عن نقطة الدائرة حيثما هذه تتمرد على ا صفائها ؛ أو ما نظرت عن بعد الى رجل ينحط بطرقه الثقيل على صخر اصم فلا يصلك الصوت الا وقد رفع يده وخبت الصوت من حواليه ؟

تلك حالنا اليوم في بلادنا بل حال كل ضجة تطو وتنشر. فقد اخذت تموُّجات الكفر الذي مشى في الغرب ومضى على عهد نفتيه الواسع هناك خمسون سنة تدب في اثنائها بانواع شتى وتتنقل من طور الى طور. الا اننا نحن لم نرَ الحجر الذي وقع ولا الذي يثب لنا تو ما بلغ البنا من مفاعيله وقد جهلنا ان يد الضارب على الصخر اخذت ترتفع

تحيَّرنا واندفعنا مع ذلك التيار لانهُ نشأ وترعرع في الغرب. والغرب في اعيننا منبت اخرية ومهد العلم العصري فتفتحت قلوبنا وعيوننا لوعي كل ما يجيئنا من تلك الناحية بلا بحث ولا روية. وقد كان الاجدر بنا ان نرَ في حقلنا النابت ببذور اوربة وبيدنا للنجل ننتقي بها للشبه المضر وتقطع الفرطب والشوك

نحن اليوم على تحيُّر للكفر لاننا عطاش للتقدم بكاري بحرة اجارية وقد ظننا ان الكفر لا ينطلق من عقال الحيوان الا بالكفر اذ رأينا الغرب استاذنا في هذا الفن جامعًا الاثنين وقد وصلا اليهِ متقدمين اما سنة فعلى استعداد للعود الى القديم من معتقداتها بعد ان جربت خمسين عامًا عجمت في خلالها عود الكفر ومرَّت على صفحاته صفحة صفحة بجدات الصواب فيه فاخذته حقًا واصح العلم

نتيجة التجربة

واني لاكاد اجد لاوربة عذرًا فيما وقعت فيهِ لانها كانت كمن يكتشف بحرة الا مشافات الجديدة وخطرات العلوم الجارية فكانت حالتها شذوذية لم يسبق لها

مثلها فاندهشت ابصارها بالانوار الجديدة التي سطعت عليها فظنّ العقل — ومن طبعه التكبُّر — ان اكتشافاته تغنيه عن الخالق وعن شرائع الدين فرام الاختبار :

ففي منتصف القرن الماضي نفخ الوضعيُّون وهم الذين لا يعتقدون غير المحسوسات في اوربّة روحاً جديدة وحملوا بها على كلّ ما لا يقع تحت الحواسّ حملةً عشواء وساعدهم على استمالة العقول الطريقة العلمية الجديدة التي ملكت القلوب منذ ذاك الحين لِما ظهر لها من النفع والخصب العجيب في الاكتشافات فنشر اغوسط كونت (A. Comte) راية العصيان بل النكران لله ولحق به ليتره (Littré) ورنان (Renan) وستيوارت ميل (Stuart Mill) الخ . ولا تظنّ ان العلوم الوضعيَّة هي التي دفعتهم الى ذاك الجحود بالبراهين القاطعة التي قدَّمتها لان موضوع هذا شيءٌ حسّيّ لا يرتفع الى ما هو فوق المحسوس فاذا هي تحطت بنتائجها الى الغير المحسوس والمطلق فقد خرجت عن دائرة اختصاصها المحدَّدة لها عقلاً ووضعاً فجاء فكرانهم ذاك عفواً بل كان عن هوًى بالجديد وشغف بالاناثيَّة والحرية المطلقة يشهد عليه اعمال اغوست كونت المذكور ابي الوضعيين اذ أَلَّه الانسانية واقام نفسه رئيس احبار لها وبنى لها معبداً حتى توصل الى الشاذّ المضحك

فجاء ذلك النكران ضربةً قاسية على الآداب وعبثاً كان يصيح بهم بول جانه (Paul Jannet) بالرجوع عن تلك الطريق المخيفة التي تطلق الانسان من كل قيد وترخي لهُ عنان الشهوات والله اعلم الى اين يكون مصيرهُ . امَّا هم فاصمُّوا آذانهم وعمدوا الى بناء مجتمع انساني جديد بلا دين ولا رب

وقد كان مذهب كُنت رائجاً منذ ذاك الحين رواج المذهب الوضعي فاستصنعوا لهم منهُ مبدأً عمليًّا يحفظ آداب البشر ويكون اساسهُ في محبَّة الواجب لاجل الواجب بلا نظر الى غاية من وراء الحياة فكانوا فيه كالمتلاعب بالالفاظ . فلم تطل المدة حتى استبان لهم ضلالهم وفقهوا ما يكون من امر ذاك الحاجز الرقيق لمام تيَّار الميل وزوابع الشهوات فانقلبوا عنهُ الى طلب آداب عامية تبنى على الحوادث الوضعيَّة اسوةً بباقي العلوم كالكيمياء والطبيعيات . فسعى بعضهم وجدَّ الى هذه الغاية كستوار ميل والفرد فوليه (All.. Fouillée) وهربار سپنسر (H. Spencer) واذ لم يكن لهم يد من وضع حدّ للتلذذ بالدنيا وغاية للاداب وللوجود بالاجمال فقد

وضعوها في خير الانسانية جمعاء. فما لا يضرّ هذه مباح وما يضرّها ممنوع فكانت الانسانية وهي موجود عقلي قاعدة للاداب وللاعمال

ومن الظاهر ان العلوم الوضعيّة لا تدلّنا على الاصلح بل هي تخبرنا بما هو الشيء وبما ليس هو فكان لا بدّ لاصحابنا ان يستنتجوا من مبادئهم ما استنتجهُ لاڤي برول (Lévy Brühl) من ان علم الاداب ينحصر بدرس اعمال الانسان على ما هي كما تدرس عوائد الحيوانات من ذئب وضبع ونمر

وعلى هذا النمط بلغ الانسان الى الانطلاق من كل عقال يحجر عليهِ شيئاً من الحريّة المطلقة ولم يبقَ امامهُ ما يوقفهُ عند حد او يمنعهُ عن مطلب. فما يعملهُ هو الصحيح الصوابي لانَّ الطبيعة تعمل فيهِ فلا يحقّ لنا الّا ان ننظر في ذاك العمل كما هو كأننا في حادث طبيعي او تركيب كيماوي. وقد رأى بعضهم ان الانسانيّة لم تزل مثقّلة ببعض الشرائع تمسك عن الانسان شيئاً من الحريّة فعمدوا الى تمزيق هذا الباقي الجليل ونبذهِ ليكون للانسان السلطان المطلق على ذاتهِ لا يشاركهُ فيهِ مشارك. لهذا قد ارتفعت من اوربة نغمات جديدة تطرب الاميال وتروق للشعور فقالوا مع هرفة (Hervé) : لتسقط الوطنيّة. وصرخوا مع بول وفيكتور مارغريت (Paul et Victor Marguerite) : فليسقط الزواج الشرعي

ورأى غيرهم ان تلك النتائج لا تروي غليلًا فقاموا ينكرون كل شيء في الكون الّا الحوادث فكلُّ شيء في العالم انما هو حوادث وظواهر ولا شيء من ورائها واذا اختلفت بعضها عن بعض فاختلافها متأتٍ عن الكميّة والكيفيّة. فانظر من هذه اللمحة في مجرى الفكر في اوربة منذ خمسين سنة كيف تدرّج العقلُ من نتيجة الى نتيجة وانتقل من هوّة الى هوّة حتى وقع في اللاشيء. فالاساس اذًا فاسد بفساد النتيجة. ولا تسلْ عمَّا يصل اليهِ العقل البشري الضعيف متى شمخ بانفهِ على خالقهِ ومال عنهُ بعقلهِ وقلبهِ

ويقال ان الخطر يُفيق السكران من سكرتهِ. نظرتْ اوربة فاذا هي على شفير هاوية لا تعرف لها قرارًا بما تأبطتهُ من المبادئ الفاسدة واستندت اليهِ من الآداب فوقفت وقفةَ المتعجب من الوصول الى غير ما كانت تطمح اليهِ واخذت تتفرّس فيما هو امامها ولم ترَ نجاة الّا بالرجوع القهقرى. فكر الانسان خالقهُ جزّهُ الى فكران

الآداب فتكران الاشياء وانقلبَ من معطِّل دهري الى لاشيئي . وقد رأوا بعيونهم بعد التجربة ان الدين لهو الاساس الوحيد الصادق للهيئة الاجتماعيَّة وللآداب وللوطنيَّة وللزواج ولكل شيءٍ حسن وصالح في الدنيا

فلا بدعَ بعد هذا اليوم ان يقوم عشرات من المفكرين في كل صقع وناد يستصرخون الناس ويدلُّونهم الى الخطر اللاحق اذا لم يتداركوا الشر كبلفور (Balfour) ووليام جيمس (William James) وبورجه (P. Bourget) ولانسان (Lanessan) . وهلمَّ جرًّا وقد تتقوَّى هذه الحركة وتمتدّ وقد جرَّت وراءها كثيرين من قادة الفكر وانشئة التعليم العالي : فالمفكرون اذًا هم اليوم في الغرب على غير ما نراه من نزعات الشرق

ولا تقل ان مجرى الاحوال في اوربَّة والحملة العنيفة التي حملها الجاحدون على الدين واهله يخالف ما نذكره لك . فنحن لا يهمُّنا ما يجول بين طبقات الشعب ويتحرك به الجماهير وبعض المفكرين من الطبقة الوسطى او المتطفِّلين على موائد الآداب ومن المعتاد ان السياسة تتأخر عن حركة الافكار خمساً وعشرين سنة على قول بعضهم . وانما يهمُّنا ما يجول في عقول كبار المفكرين وهم قادة الشعوب وعليهم المعوَّل في سير البشرية لان بيدهم القوة والسلطان الاعلى ولم يكن ارتداد برونتيار (Brunnetière) وكوپه (Coppée) وريته (Retté) وبورجه وهويسمنس (Huysmans) وڤرلين (Verlaine) وغيرهم من كبار الكتبة الَّا مقدِّمات قريبة للحركة الجديدة الآخذة في الشيوع بين العلماء وارباب الفكر

تلك هي المراحل التي مرَّت بها اوربة منذ خمسين عاماً وبلغت بها الى حالة قاسية من القلق والانزعاج حتى تلبَّدت سماؤها بسحابات مدلهمَّة تنذر باخطار يرتجف لها الجسم هولًا . وقد رأينا انَّ من كان سيبها البارحة اصبح خائفاً هلعاً منها اليوم . فاذا كان الكفر قد انبعث من اوربة وانتشر فسيئ مبادئ فاسفيَّة عليلة ضعيفة ولكن ما الداعي اليه في ديارنا ؟ فاين الفلاسفة ؟ واين المبادي ؟ واين المذاهب ؟ فان قلتُ هوسٌ بالجديد لا اراني اغلط او عزوتهُ الى اميال القلب فلا تقوى على تكذيبي . اوربة ترفع كأس الكفر عن شفتيها لانها ذاقت طعمهُ ونحن نتهافت اليها

تهافت الظمآن. اوربة اخذت تفيق من سكرتها الطويلة بما رأت لمامها من الاشباح المخيفة وتفيض عيوننا ونحن اذاننا وراء الكفر ركضاً. فاوربة في المخاض ونحن في اولهِ. فلنحفظ عتيقنا فهو اصلح لنا!

لمحة تاريخية عن مشهد

القديس استفانس في اورشليم

(بنسبة عيد اوَّل الشهداء في ٢٦ ك١)

لخورة الاب اسطفان دومط الدومينيكي

ان القديس استفانس المعروف باول الشهداء كان احد السبعة الرجال الذين انتُخبوا برأي الاثني عشر رسولاً ليتمكَّن هؤلاء من المواظبة على الصلاة وخدمة الكلمة ويصفهُ الكتاب العزيز بقولهِ: وكان استفانس مملوءاً نعمة وقوة وكان يصنع عجائب وآيات عظيمة في الشعب. ولمَّا لم يستطع اعداؤهُ ان يقاوموا الحكمة والروح الذي كان ينطق بهِ هيجوا عليهِ الشعب ورؤساءه فاتوا بهِ الى المجمع واقاموا شهود زور يقولون انهُ نطق بكلمات تجديف وهكذا اتَّهم هذا القديس واماراتُ السكينة والوقار ظاهرة على وجههِ وسمات السرور والبهاء تكلِّل محيَّاه فتفرَّس فيه جميع الجالسين في المجمع فرأوا وجههُ كوجه ملاك (اعمال ص ٦) وكانت حجتهُ قوية جداً لم يخشَ فيها لومة لائم فزادت من فائرة انتقامهم واخيراً هجموا عليهِ بعزم واحد ثم طرحوه خارج المدينة ورجموهُ (اع ص٧: ٥٧)

ان استشهاد القديس خارج المدينة قولٌ لا ريب فيهِ اذ انَّ نصَّ الكتاب صريح بذلك. انَّما هنالك تباينُ آراء في الموضع الذي رُجم فيهِ. أكان ذلك في الجهة الشماليَّة من المدينة او في الناحية الشرقيَّة منها؟ ولعلَّ في سرد اقوال الذين كتبوا بهذا الصدد وصولاً الى الحقيقة

ان اوَّل من ذكر موقع استشهاد القديس استفانس هو لوسيانس الكاهن وذلك في القرن الرابع برسالة تناقلتها علماء الكنيسة الاورشليميَّة واثبتها القديس اغسطينس